امبراطور المانيا والحرب

(٥)

قوة اميركا في الرجال

ساد ني الامبراطور لآخر مرة في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٧ . وكنّا قد ارسلنا الى فرنسا حتى ذلك التاريخ ١٦٩٠٠٠ رجل ولكن الامبراطور قال اننا لم نرسل سوى ٣٠٠٠٠٠ رجل . وكان من رأيه اننا لا نستطيع ان نرسل اليها اكثر من هذا العدد بكثير . قال لي بلهجة الساخر « ان اميركا اقدمت على هذه التجربة البديعة تجربة انشاء جيش لها . وقد سمعت ان ١٦٠٠ رجل منهم تمردوا في نيويورك وابوا ان يركبوا البحر . وسمعت ايضاً ان مدينة في الشمال الغربي معظم سكانها من دم اسوجي ابت ان تقيد ابناءها شبانها بالمرة في السجلات العسكرية . ونحن نتسقط كلّ الاخبار عن اميركا »

وقال لي في وقت آخر « أتعلم كم ظنّ يقتضي تسفير الجندي » . قلت لا . قال « انهُ يقتضي ستة اطنان . فارسال جيش عدتهُ نصف مليون يقتضي سفناً حمولتها ثلاثة ملايين ظنّ هذا ما عدا السفن اللازمة للتجارة العادية . واني تأتي هذه السفن وغواصاتي تغرق سفن الحلفاء باسرع مما يستطيع الحلفاء بناء سفن مكانها وهي كفيلة بجميع الجنود التي ترسلها اميركا الى فرنسا . ما احمق اميركا في دخولها الحرب . ولو سلمنا بانها تستطيع انزال جيش حقيقي الى برّ فرنسا فاي نفع لجيش مثل هذا . فقد رأى الاميركيون باية سهولة خرقت الجيش الايطالي واسرت ٣٠٠٠٠٠ من رجاله . ولا بدّ ان يدركوا اني استطيع ان افعل مثل ذلك في الميدان الغربي . ولو بقيت اميركا على الحياد لبقيت تجني ارباحاً لا تقدّر حتى اذا جاءت السلم وجدها في مكان تحسدها عليه امم الارض . اما وقد جرى ما جرى فاسعى جهدي كيلا يكون لولسن مقعد حول مائدة الصلح . وستدفع اميركا جميع نفقات الحرب »

فشل حرب الغواصات

أعلم ان الالمان لم يكونوا يعلمون بفشل حرب الغواصات عند سفري من برلين في يناير سنة ١٩١٨ . وكانت الحكومة الالمانية تقدر خسارة الحلفاء من

البواخر بما تستطيع هذه البواخر ان تحمله لا بما تحمله حقيقة فكان ذلك احد اسباب الفرق بين تقدير الالمان لتلك الخسارة وتقدير الحلفاء لها . وقد اخبرني انكليزي كان ممتقلاً في بعض انحاء المانيا ان بحاراً انكليزياً كان يكتب في مذكراته يوماً فيوماً اسماء جميع البواخر والسفن التي اغرقتها الغواصات بناء على رواية الصحف الالمانية . وعند مراجعة القائمة وجد ان باخرة منها أغرقت خمس مرات. وكان هذا البحار في سفينة صغيرة حمولتها ٩٠٠ طن فاغرقتها غواصة ونجا هو ولكن الصحف الالمانية روت ان حمولتها ٥٠٠٠ طن

وسألني المانى صديق لمكسيمليان هاردن (الكاتب الالماني المعروف) قبيل عيد الميلاد سنة ١٩١٧ « كم غواصة تظن اننا فقدنا الى هذا اليوم » . فقلت « سمعت ان انكلترا احتفلت منذ شهور باغراق الغواصة المئة » . قال « هذا افك وبهتان . اني اعلم من مصادر ثقة اننا لم نفقد سوى ست غواصات فقط »

الجندي الاميركي

كان الامبراطور وقومهُ اجمالاً موقنين بانهُ ليس في وسعنا ارسال جيش كبير الى اوربا بل ذهبوا الى ابعد من ذلك فقالوا انهُ ان استطاعت اميركا انفاذ ذلك الجيش الى اوربا فانهُ لا يضيرهم ولا يقلق خواطرهم . قال لي بعض الضباط الالمان ان انزال جيش اميركي عدتهُ مليونا رجل الى فرنسا لا يكفي لترجيح كفة الحلفاء لان المانيا شرعت في اخذ مثل هذا العدد من جنود روسيا المدربة. وانما يخشى من الجيش الاميركي ان يرجح كفة الحلفاء في الطيارات وهذا ما يقلق الالمان بعض القلق لا كثرة المقاتلة من الاميركيين. وزد على هذا ان الامبراطور لم يكن يعلم عظيم شان على صفات الجندي الاميركي الحربية. قال لي مرة « قد يتصرف الجندي الاميركي التصرف اللائق بالجنود اذا كان القتال في العراء ولكنهُ لم يخلق لمثل القتال الذي يجد في فرنسا اذ يعوزهُ الصبر على احتمال عيشة الخنادق ولا قبل لهُ بالصبر والمكث على حالة واحدة على شدة لزومهما في الحروب الحديثة فضلاً عن قلة تمرنهِ وتمرن ضباطهِ »

سيادة العالمين

ان تاريخ المانيا الحديثة كاف وحدهُ للدلالة على ما تكن صدور حزب الحرب فيها من سيادة اوربا اولاً وسائر العالمين ثانياً . وهذه النية ما فتئت تنكشف

شيئاً فشيئاً منذ عهد فردريك الكبير والعالم يراها الآن في اتمها ويرى ما تبذل المانيا من الجهد الاقصى لانفاذها وتحقيقها . وقد انتهت الحروب الطويلة التي قام بها فردريك الكبير بين سنة ١٧٤٠ وسنة ١٧٨٦ بالحاق سليزيا بمملكة بروسيا فقضى بذلك البانتة الى حين ولكن قوادجيشه عُلوا بخمرة ذلك النصر فالحوا عليه في موالاة حرب الفتح هذه . ومضت مدة وجيزة وروح الحرب في بروسيا كامنة فلم يثرها من مكمنها الا حنق نبوليون ومالهُ فتح العالم طرًّا وحينئذٍ اتحدت انكلترا وبروسيا عليهِ لاسترداد املاكهما منهُ

وبقيت اوربا ناعمة بنعم السلام على مدى جيل او جيلين لانها رأت نفسها اعجز من ان توري زناداً او ان تنفخ للحرب ناراً . على انها ما كادت تبتجمع قواها بعض الشيء حتى رأت بروسيا ان تعيد سيرتها من الغلب والفتح . ففي سنة ١٨٦٤ شهرت الحرب على الدانمرك وانتزعت منها مقاطعتي شفرويج وهولشتين بعد قتال دام ٤٦ يوماً

وفي سنة ١٨٦٦ شهرت حرباً اخرى على النمسا وبلغ من عظم انتصار جيشها ان الحرب حسبت في حكم المنقضية بعد قتال دام ١٥ يوماً فقط فاقتطعت من النمسا هنوفر وبفاريا وبعض الولايات الصغرى

حرب سنة ١٨٧٠

وتربصت حيناً ثم اثارت حرباً اخرى على نبوليون الثالث وبلغ من عظم دهائها ومكرها انها حملت فرنسا على شهر تلك الحرب في حين انها لم تكن مستعدة لها . شهرت الحرب في ١٧ يوليو سنة ١٨٧٠ ولم يمضِ ٤٧ يوماً حتى وقعت المعركة الفاصلة في ٢ سبتمبر اذ حصر الجيش الاكبر والامبراطور في سيدان واكره على التسليم . فانتُزعت ولايتا الالزاس واللورين من فرنسا وابتزت منها غرامة قدرها ٢٠٠ مليون جنيه

وما برحت المانيا منذ سنة ١٨٧٠ تعمل على تشييد صرح قوتها العسكرية والتجارية والاستعمارية واعلاء بنيانهِ وليس لها غرض الا الحفاظ عليها والتملك والفتح في الساعة الملائمة لهما . ورأت ان هذه الساعة ازفت يوم قتل ولي عهد النمسا وقرينتهُ في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ فكانت هذه الحرب . وكانت تظنّ انها اذا تكون تكراراً لغلباتها السابقة . فان الحروب المذكورة آنفاً انتهت كلٌّ منها

في اقل من ٦٠ يوماً وقدرت ان هذه تنقضي في ٩٠ يوماً . ولولا معركة المارن لطابق تقديرها الواقع وكان لها ما ارادت

ولو فازت المانيا بالاشراف على الجزء الاكبر من اوربا لانتقلت منها الى نصف الكرة الغربي والى الشرق الاقصى . قال لي الامبراطور في حديث دار بيننا بعد ابتداء الحرب بقليل وكان مدار الحديث على اشتراك انكلترا في الحرب:

« ما اعظم رياء هؤلاء الانكليز . فقد طالما احسنوا معاملتي عند زيارتي اياهم حتى لم يدر في خلدي انهم يدخلون هذه الحرب . وكانوا يسلكون على الدوام سلوك المحبين لي . وانت تعلم ان امي انكليزية . وكنت احسب ان الارض ارحب من ان تضيق دوننا نحن الثلاث. فالمانيا تستطيع السيطرة على قارة اوربا. وانكلترا باملاكها الواسعة واساطيلها تستطيع السيطرة على بحر الروم والشرق الاقصى . واميركا على نصف الكرة الغربي »

اما ما ينوي الامبراطور حقيقة فيتبين من خطبة خطبها منذ ٢٥ سنة وقال فيها : « ما زلت منذ صغري تحت تأثير خمسة رجال وهم اسكندر (الكبير) ويوليوس قيصر وتيودوريك الثاني ونبوليون وفردريك الكبير. اولئك الرجال حلموا حلم انشاء امبراطورية تشمل العالم كلهُ اجمع فشلوا . وانا ابطل الحلم عينهُ ولكني سأفوز »

تركيا تابعة المانيا

كان مشروع الامبراطور الذي وضعهُ لسيادة اوربا يشتمل فيما يشتمل على مراقبة تركيا وعليهِ بذل كل جهد لتقويتها لكي تكون حليفة نافعة في الحرب التي كان يضمرها . ولما استولت ايطاليا على طرابلس الغرب منتزعة اياها من يد تركيا قبل حرب البلقان قلت على مسمع الامبراطور ان ايطاليا أحسنت فيما فعلت . فتأفف من قولي هذا علماً بان خسارة تركيا خسارة لهُ هو اذ من مشروعهِ جعل تركيا تابعة لالمانيا كما تقدم القول . ولبلوغ هذه الغاية انفذ الضباط الالمانيين لتدريب الجيش العثماني وامدهُ بالسلاح والذخيرة . وما اهتمّ بمد سكة حديد بغداد العظيمة الا وهو يرمي بنظرهِ الى المستقبل

ولما شبت نار الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ كان الامبراطور واثقاً عظيم الثقة بان الجيش العثماني المدرّب على ايدي ضباط المان يخرج من المعترك منصوراً

وان بروجرام الاوربي يتقدم تقدماً بيناً في ختام الحرب. وقد اخبرني انهُ كان في اتوموبيلهِ خريطة بيان مواقع القتال في تلك الحرب وانهُ حيثما ذهب كان يتتبع سير القتال بدبابيس يغرزها في الخريطة. فلما خذل الجيش النمساوي ستنط في يد الامبراطور طبعاً. قال لي بعد ابتداء الحرب « لا ريب ان اولئك الجبليين والسربيين والبلغاريين ابطال في الوغى فانهم يعيشون معظم عمرهم في العراء فلذلك كانت لهم سدى الابطال المجربين ولحمتهم. واذا بقوا يقاتلون كما نراهم الآن لم يمض اسبوع حتى نراهم في الاستانة. اما هؤلاء الاتراك فبئس الرجال هم. فقد امددناهم بالمدافع والذخيرة وعلمنا ضباطهم ولكن اذا لم يريدوا القتال فليس في طوق اكراههم عليهِ. فقد فعلنا كل ما استطيع »

وقد افضى اخذال الترك الى انحطاط قيمتهم في عين الامبراطور كحلفاء لهُ فلذلك زاد جيشهُ العامل من ٦٥٠ الفاً الى ٩٠٠ الف لاعادة توازن القوات كما قيل حينئذٍ. واخذت نفقات الزيادة من ضريبة ضربت على رؤوس المال وقيل لي حينئذٍ ان لا بدّ من دفع ما يفرض عليَّ في هذا السبيل. فقلت لسفيرنا جيرارد في ذلك فنصح لي بان ادفع ما يطلب مني محتجاً على ذلك ووافقني على انهُ لا يجوز اكراه اجنبي على دفع مال لمساعدة ميزانية الحرب الالمانية. ومهما يكن من هذا وذاك فاني دفعت

التبسط التجاري

ان السعي الذي بذلتهُ المانيا في سبيل الاستعمار اخفق في جملتهِ لان الالمان ابوا سكنى مستعمراتهم. على ان ذلك السعي والوسائل التي عمدت المانيا اليها للاستيلاء على اسواق العالم التجارية هي جزء جوهري من بروجرام سيادة العالمين الذي رسمتهُ المانيا لنفسها. والمرجح انها لو لزمت هذه الخطة ولم تحد عنها لفازت ببغيتها اكثر مما فازت بترك العالم يسبح في بحر من الدم

قال لي الامبراطور مرة وهو يشرح سياسة التبسط هذه « عندي نحو ٧٠ مليون نسمة ولا مناص من ان نجد لهم موضعاً هنا او هناك. ولما صرنا امبراطورية كان في كل واد اثر من انكلترا. والآن لا بدّ لنا من ان نحارب لنأخذ ما نريد وهذا ما يدعوني الى ترويج اسواقنا في جميع انحاء الدنيا كما فعلت بلادكم اذ تملكت هاواي وفيليبين لتكون لها موطئاً تخطو منهُ الى اسواق

الشرق الاقصى على ما فهمت . وقد فعلت انا مثل ذلك في كياو شاو »

والظاهر ان الحرب غيرت خطتهُ من هذا القبيل بدليل قولهِ لي انهُ « اذا انتهت هذه الحرب كفَّ الالمان عن المهاجرة الى اميركا بل ان قومي يسكنون في البلقان ويتولون امور تلك البلاد العجيبة ويصلحونها . وقد زرتها وانا اعلم انها تفي بمرامنا كلَّ الوفاء »

اما عن نصيبهِ هو في تجديد اوربا بعد الحرب فقد قال امامي مرة وكأنهُ كان يخاطب نفسهُ « لقد بلغت من الكبر ستين حجة والي وكل تجديد اوربا كلها وترميمها » !

سوء ظنهِ باميركا

لم ينكر الامبراطور ما كان يعدُّ من العدد لسيادة العالمين ولكنهُ كان قليل الصبر على كلِّ من رام تبسطاً او توسعاً مثلهُ في ناحية من انحاء المعمور . وعليهِ طالما انتقد ميل انكلترا الى وضع يدها على هذه البقعة او تلك واساء الظنَّ باميركا لضمها هاواي وفيليبين وسعيها في ترقية شؤون كوبا بعد الحرب الاسبانية. ورأى في طيِّ هذه السياسة الجديدة سعياً في سيادة العالم يضادُّ المبادىء التي قامت عليها حكومتنا . واعترض على تصدِّينا لشؤون المكسيك مع انهُ كان يبذل كل جهد في حمل المكسيك على التعرض لنا كما دلت مذكرة زمرمان المشهورة. ومما قالهُ في بعض احاديثهِ « اي حق للرئيس ولسن في اصدار الاوامر والنواهي الى المكسيك ولمَ لا يترك احزاب المكسيكيين يتناجزون الى ان يفصل القتال بينهم » . وقال في حديث آخر عن تهدد اميركا بدخول هذه الحرب « اي حق لاميركا في التمسك بمبدإ منرو من جهة والتصدي لشؤون اوربا من جهة اخرى. فلتعترف بان عندنا نحن ايضاً مبدأ شبيهاً بمبدإ منرو ولترفع يديها من هذه الحرب »

« خوف انكلترا »

لا ريب ان الامبراطور توهم ان الجيش العرمرم الذي عندهُ والاسطول الضخم الذي بناهُ يمكنانهِ من انفاذ بروجرامهِ الطويل العريض من غير ان يلقى مقاومة تذكر . وكان يخشى انكلترا اكثر مما يخشى غيرها ولكنهُ كان يتظاهر باحتقارها اشد احتقار . وكان يخيل اليهِ انها لن تمتشق سيفاً في وجه المانيا وان في وسعهِ اضرام نار الحرب متى شاء من غير ان تتعرض لهُ . ولما اشتدت ازمة

المغرب الاقصى سنة ١٩١١ على اثر انقاذ المانيا سفينة حربية الى اغادير كان يؤمل وقوع حرب بينه وبين فرنسا ويثق ان انكلترا تقف على الحياد . قال لي حينئذٍ « ان انكلترا تخاف حربنا لئلا تفقد مصر والهند وارلندا . وكل امة من الامم تفكر مرتين قبل مقاتلة جيوشي وخصوصاً انكلترا وذلك لانها تعلن بمستعمراتها ان تذهب هباءً » . ولو ابدت النمسا حينئذٍ ميلاً الى مساعدة المانيا في تلك الازمة لوقعت الحرب الاوربية سنة ١٩١١ بدلاً من سنة ١٩١٤ ولكن امبراطور النمسا عارض حينئذٍ نية امبراطور المانيا فتأجلت الحرب . ثم لما رأى امبراطور المانيا فرصة اخرى سانحة للحرب سنة ١٩١٤ كان لا يزال واثقاً بان انكلترا تبقى على الحياد كما دلت اقوال البرنس لخنوفسكي سفير المانيا في انكلترا قبل الحرب

المانيا تحت السلاح

ان الذي يعلم ما كان الامبراطور يرمي اليه من سيادة العالمين يفهم معارضتهُ الدائمة في نزع سلاح الدول او تخفيضهِ . ولولا جيشهُ واسطولهُ العظيمان لتخلى عن ذلك المطمع الواسع فذهب حلماً من الاحلام التي لا يمكن تحقيقها . قال لي مرة « انظر في تاريخ الامم تجد ان الامم التي تقدمت وصارت عظيمة انما هي الامم الحربية . اما التي لم تكن لها مطامع ولم تحارب فلم تكن شيئاً مذكوراً »

وبعد ما دلّ ولسن اوربا على طريق السلام في احدى مذكراتهِ الى جميع الدول المتحاربة زارني الامبراطور فقال في حديث « ان طريق السلام واضح كل الوضوح الآن وليس فيهِ عثرة سوى جيشكم واسطولكم وما يضاف اليهما على الدوام . ويظهر لي انهُ اذا القت المانيا سلاحها لم يلبث السلام ان يأتينا مسرعاً » فقال « هذا ما لا تفعلهُ المانيا بتاتاً اذ ليس لنا جبال تحمينا كجبال البيرنيز (بين فرنسا واسبانيا) بل ان سهول روسيا مفتوحة عينا تتهددنا بالجيوش الضخمة التي تملأ رحابها . فسوف نبقى مدججين بالسلاح الى الابد »

حديث مع البرنس بلاس

البرنس بلاس من اقرب المقربين الى الامبراطور وربما كان ثاني الملأك في المانيا غنى وسعة اراضٍ وامرأتهُ اميركية ولطالما اخبرني بامور وقال لي اقوالاً تشبه اقوال الامبراطور حتى لم اشك انهُ حافظ سرّه ولو لم يكن من الموظفين الرسميين . قصدني في محل عيادتي يوم ٥ اغسطس سنة ١٩١٤ وكان لابساً ملابس

ضابط عظيم فرأيته يبتسم ووجهه يطفح بشراً وثقة ثم قال « لقد جاءت الحرب العظمى وانا قاصد الميدان حالاً . وستعلم هذه الليلة ان انكلترا ستشهر الحرب علينا » . فقلت « يا الله على ذلك ممكن » . فقال « نعم ان سفير انكلترا سيطلب جوازهُ اليوم وسيعطاهُ اليوم او غداً . ولا بأس بذلك لانهُ يجلو لنا موقف انكلترا وهذا يسرّنا كل السرور اذ لا بد لنا من معرفتهِ لانهُ لو خرج اسطولنا من مراسيهِ قبلما تعلن انكلترا موقفها لقطع الطريق عليهِ بينهُ وبين قاعدتهِ ولذهب ضياعاً ومن حسن حظنا ان انكلترا ارتنا موقفها في بدء هذه اللعبة »

« قلت ولكن بلادكم تحصر يا حضرة البرنس »

قال « ذلك لا يقلق لنا بالاً لانهُ ليس من السهولة على ما تتصور فان هناك ترعاً وجزراً كثيرة فلا تعدم سفننا سبيلاً الى الدخول والخروج . وسواء كان هذا او ذاك فان الحرب تنتهي قبلما تجد انكلترا فرصة لانجاز شيء في هذه الجهة وعندنا مؤن كثيرة من كل شيء تكفينا الى ما بعد الحرب »

قلت « كم تدوم الحرب في ظنك »

قال « تنتهي قبل عيد الميلاد . فثق بانني اعود الى بيتي قبل هذا العيد »

قلت « هل يوافق جمهور الامة على هذه الحرب »

قال « كلهم بلا استثناء واحد . ومما يستوجب العجب سلوك الاشتراكيين فقد ظنّ كثيرون انهم يكونون حجر عثرة في سبيلنا ويعوقون سيرنا ولكنهم ظاهرونا بلا معارض . ولما دخلت محل عيادتكم اليوم جاءتني امرأة البواب تطلب انتظام ابنها في سلك الجيش وهو لم يبلغ سنّ العسكرية بعد فاجبتها الى طلبها واخذتهُ على بابكم . ومن اعجب الامور اسراع نساء المانيا الى تقديم ابنائهن لخدمة الجيش »

وقبيل عيد الميلاد رأيت البرنس وذكّرتهُ ما قال عن انتهاء الحرب قبل العيد وقلت « انك وعدتنا بالصلح والسلام قبل عيد الميلاد فما رأيك الآن » فاجاب « ليس في هذا العيد بل في التالي . فان الامور لم تجرِ على ما نشتهي تماماً ولكن ثق بان الحرب تنقضي قبل عيد الميلاد التالي على كل حال »

واتفق اني رأيتهُ قبيل عيد الميلاد سنة ١٩١٥ وذكّرتهُ ثانية ما قال عن انتهاء الحرب فاجاب ضاحكاً « لست اظن ان هذه الحرب اللعينة تنتهي ابداً »